

إضاءات للنهوض بجودة التعبير و آليات وظيفية في تحليل المحتوى وبطاقاته:

إن مطلب كل تعليم وتعلم لأنشطة اللغة العربية هو إجادة التعبير ، لذلك أطلقنا هذه الورقة التي تهم أساسا طلبتنا في تخصصات الدراسات اللغوية ، الذين يتطلعون لإعداد مذكرات تخرجهم ، إن في مرحلة الليسانس أو الماستر أو الدكتوراه ، حيث أن جلهم يتناولون إشكاليات ميدانية عن تعليمية أنشطة اللغة العربية لاسيما بالتعبير بشتى أنواعه ، كما أن المهتمين بهذا الموضوع قد تتسع دائرتهم إلى المعلمين و المؤطرين و غيرهم من المعنيين من قريب أو بعيد .

نقول إن تحليل المحتوى analyse de contenu هو أسلوب أو أداة للبحث العلمي ، يمكن أن يستخدمه الباحثون في مجالات بحثية متنوعة لوصف المحتوى الظاهر و الصريح للمادة المراد تحليلها من حيث الشكل و المضمون .

واستخلص بعض المختصين (2011) تعريفا لتحليل المحتوى بأنه: " أسلوب لوصف الموضوعي للمادة اللفظية (مادة الاتصال)، بحيث يقتصر عمل الباحث هنا على تصنيف المادة اللفظية التي يجلها وفق فئات محددة، بغية تحديد خصائص كل فئة منها، واستخراج السمات العامة التي تتصف بها، والانتهاء من كل ذلك بتفسير موضوعي ودقيق لمضمونها."

وإذا أردنا الوصول إلى نتائج مستقرة في أسسها العامة فلا مناص من الاستناد بمعايير إجرائية، وتوفير جملة من المواصفات المطلوبة في وسائل القياس عليها تسهم في تخفيف اضطراب أدوات التقويم في العلوم الانسانية، وتقلل من أثر بعض الصعوبات التي تحول دون ضبط المعايير الدقيقة والملائمة ونشير إلى أننا حصرنا الدراسة الإحصائية في الحساب الكمي من عد التواترات وما يقابله من رتب أو نسب مئوية فقط، وقد نهجنا في إعداد بطاقة التحليل نهجا يبتغي الاستجابة لبعض من تلك المواصفات، متوخين السير نحو نتائج مستقرة نسبيا.

وحتى لا تكون نظرنا لكتابات التلاميذ ذاتية ، اعتمدنا على أشهر الدراسات الأكاديمية المحددة لمعايير تقويم مستوى الاتقان المطلوب ، بعد تصفح الأدبيات التربوية المتوفرة، حيث شكلت المناهج التعليمية ومؤلفات تدريس اللغة العربية أساس هذه الأدبيات ، وأفضت بنا المراجعة إلى استخراج قائمة بالمهارات المستهدفة من التعبير، واشتقاق ما يقابلها من معايير التقويم ويمكن التمثيل لها فيما يأتي:

- القدرات المنهجية: ومن معاييرها وضع تصميم منهجي ملائم وواضح، وحسن التنظيم والتبويب، ومراعاة التماسك والتنامي في تناول الموضوع، واستيفاء عناصره الأساسية.
- القدرات اللغوية: ومن مقاييسها استعمال ثروة معجمية ملائمة، وسلامة التعبير من الأخطاء الصرفية، والنحوية، ومن اختلال الربط بين الجمل.
- القدرات الثقافية: ومن تجلياتها تقدم محتويات وآراء واضحة، وتحتوي الدقة والصحة في المعلومات والمفاهيم، واستثمار حصيلة ثقافية مناسبة، ونمو القدرات التحليلية والتأليفية.
- الميول الابتكارية: ومن علاماتها التمتع بطلاقة لغوية وثراء فكري، والقدر على استبصار القضايا وتنويع الأفكار، وإظهار أصالة وتميز عن الأقران، واستعمال أسلوب شخصي وتعبيري...
- قدرات التحرير الكتابي: ومن صورها صحة الرسم الإملائي، ودقة استعمال علامات الترقيم، والحرص على وضوح الخط...

ولقد ظل ماثلا أمام أعيننا مبدأ هام نبه إليه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، وهو إجراء التمرس في إطار التعبير العادي، أي في حالة الاتصال و تبليغ الأغراض، و الامتثال لمقتضى الحال ، بوصفه من أقوى العوامل على ترسيخ الأبنية في أذهان المتعلمين وهكذا راعينا متطلبات الصدق المنطقي من زاويتين، زاوية الاستناد إلى الأدبيات التربوية، وزاوية تمثيل الأبعاد المتشابهة في التعبير تمثيلا وافيا.

1- بطاقة تحليل المحتوى: وهي أداة تتخذ تقنية تحليل المحتوى أسلوبا منهجيا لاستجلاء التصور التربوي للتعبير في كل من مناهج اللغة العربية بالجزائر، والوثائق المرافقة و بقية السندات ، من خلال استطلاع عديد الدراسات، و مناهج التعليم بالوطن العربي، ومؤلفات طرائق تدريس اللغة العربية، ولكل نوع من هذه الوثائق موقع خاص في البناء المنهجي للدراسة.

فتحليل التوجيهات الأولى يمثل مستوى من مستويات تشخيص معالم الممارسة التربوية الحالية بالجزائر، وفحص التوجيهات الثانية والمؤلفات التربوية ينتظم ضمن حلقات سلسلة اشراف سبل اكتساب مهارات التعبير، ويتمثل تحليل المحتوى في مجموعة من التقنيات التي تمكننا من إنجاز فحص موضوعي ومنظم لمحتويات الوثائق التي ينصب عليها التحليل، بهدف وصف محتواها واستخراج القرائن التي تسمح باستنباط معلومات تخص إنتاج هذه الوثائق وتلقيها.

وينطلق الفحص عادة من وصف كمي يسانده تحليل كيفي لسير أغوار الوثائق المحللة واستكناه معانيها الصريحة أو المشتقة من قرائن مقالية لا لبس فيها، ثم يأتي التأويل، بعد ذلك، لاستنباط الخلاصات الممكنة، وتستمد هذه التقنية صفتها الموضوعية من الاحتكام إلى قواعد واضحة في عمليتي الوصف والتفسير، وتجنب المحلل تحميل النصوص ما لا تحمله، حتى يكون تأويله مبنيا على نتائج محددة يستجلي ما وراءها من أسس، ويجاورها بما لديه من فروض ومنطلقات.

ولكن الالتزام الدقيق بالشروط العلمية ليس أمرا هينا، فكل ما يشكل شخصية الباحث من اتجاهات وميول وخبرات فكرية ووجدانية تناوش عمله باستمرار، وقد لا يفلح في كبح جماحها أثناء التحليل، فتترك بصماتها بادية على النتائج المحققة.

والجمع بين النوعين من المعايير استلزم المرور بعملية تصنيف وتبويب أفضت إلى بناء بطاقة موسعة تفي -
أولا- بتشخيص مكونات التصور المعطى للتعبير في كل من التوجيهات والمؤلفات العربية المتخصصة، وتتيح -
ثانيا- ملاحظة المصرح به والمسكوت عنه في هذه الوثائق مقارنة بالعناصر التي يقتضي المفهوم الحديث للمنهاج حضورها، وتفتح -ثالثا- أبواب اختبار المقترحات الخاصة بكل نوع من الوثائق المحللة، وتسمح -أخيرا- باستنباط بعض ما يمكن أن نستلهمه في تحسين الوظيفة التربوية للتعبير بالجزائر، وتشتمل الأداة على مقولات التحليل الآتية:

أسس التصور التربوي للتعبير: وهي مقولة تضم المنطلقات والأسس والمبادئ المعتمدة في بناء مناهج التعبير² بالوثائق التربوية موضوع التحليل، وتتفرع إلى أسس اجتماعية وسيكولوجية ومعرفية وتربوية وعلمية، وكل أساس منها يمثل بندا خاصا يقابل وحدة تسجيل "Unité d'enregistrement" يتم في إطارها رصد المعاني التي تربط التعبير بذلك الأساس، لإحصاء تواتر كل بند، وتقدير الأهمية النسبية التي يكتسبها في الوثائق المحللة، تمهيدا لتفسير أساس التصور والفلسفة التربوية التي ينهض على دعائمها قبل استنباط الدلالات الممكنة منه.

أنواع التعبير: وهي مقولة ترصد نوعية التعبير المستهدف، وتتفرع إلى بنود تلاحق أنواع التعبير المنصوص عليها بالوثائق المفحوصة من تعبير شفوي أو كتابي، وظيفي أو تطبيقي أو إبداعي أو حر، وذلك للوقوف على تواتر كل نوع منها، واشتقاق الأبعاد التربوية المتولدة عن ذلك، من غير أن تغفل التنوع الحاصل في المصطلحات، والتداخل القائم بينها.

الأهداف المقصودة: وهي مقولة تشمل المهارات والقدرات والقيم والميول المراد تنميتها لدى التلاميذ بتأثير من تعليمية التعبير، وتتفرع إلى بنود لتسجيل تواتر كل نوع من القدرات المستهدفة، مثل تنمية قدرات التعبير الشفوي والكتابين وتحفيز الميول الابتكارية والفنية، واستثارة الاتجاهات الوجدانية، والتعود على البحث المنظم، والعناية بالقدرات العقلية والمنهجية، وإغناء الحصيلة الثقافية، والتمرن على وسائل الكتابة والتحرير... حتى يتم إحصاء تواتر كل نوع من الأهداف، وتفسير الدلالات التربوية الناشئة عنه.

الإطار المرجعي للمضامين: ويشكل مقولة تستجمع الإطار العام لمصادر استقاء مضامين المواضيع والقضايا المطروحة في التعبير، وتتفرع إلى بنود تدون ما يخص الاستقاء من مواد اللغة العربية، أو من الثقافة المدرسية العامة، أو من الخبرة المشتركة بين الثقافة المدرسية وغير المدرسية، وعن طريقها يتم الوصول إلى رسم خريطة الإطار المرجعي لمضامين التعبير، ثم البحث عن تفسير لدلالة مفاتيح رموزها.

معايير اختيار المواضيع والقضايا: وهي مقولة تنصب على المقاييس التي يتم في ضوئها اقتراح مواضيع الكتابة الإنشائية، وتتفرع إلى بنود تثبت المعايير الصريحة في الاختيار من قبيل مراعاة الأهداف، وخصائص المتعلمين، والموازنة بين الثقافة المدرسية وغير المدرسية، وتنوع المواضيع بتنوع قضايا الحياة، أو بتنوع أجناس الكتابة أو إشراك التلاميذ في الاختيار... حتى تتمكن من استجلاء المعايير المتوارية خلف توجهات الكتابة الإنشائية، وما تعرفه من مد وجزر في اتساعها أو إحسارها.

طرائق التدريس: وهي مقولة تضم العناصر الموجهة لتعليمية التعبير في مظهرها التفاعلي داخل الفصول، وتتفرع إلى بنود ترصد العناصر الموضحة لأسس الطريقة وبنائها المنهجي وخصائصها، لملاحظة كيفية الإعداد للكتابة، وأسلوب تنظيم التفاعل، ومعاينة الأدوار المسندة لكل من المدرس والتلاميذ، وهو ما يسمح بالوقوف على ملاحظات التمرن على الكتابة الإنشائية، وملاحظة سمة الثبات أو التحول في الطرائق المقترحة وأساليبها وخصائصها، واستنتاج ما يمكن أن تؤدي إليه.

التقويم: ويمثل مقولة تشمل العناصر المكونة لطبيعة التقويم وآفاقه، وتتفرع إلى بنود تسجل تواتر كل من مفهوم التقويم، ووظائفه، ومعايير، واقتصاره على تقويم أداء التلاميذ أو شموله لتقويم عملية التدريس وتلمس آليات التطوير، مع تتبع تقنيات التصحيح والتوجيه... حتى نرسم الصورة العامة للتقويم والأبعاد التي يمتد إليها.

وإدراكا منا لل صعوبات التي تواجه المحللين الذين لم يسبق لهم تمرس تقنية تحليل المحتوى، استعنا بتوجيهات عامة ومبسطة أثناء اختبار الأداة، وهي توجيهات تيسر الانطلاق من أساس مشترك، وتتيح مقارنة النتائج المتوصل إليها من قبل محللين مختلفين، وإذا كان التبسيط يفوت فرصة التوقف المتأني عند المؤشرات والقرائن التي تلون المعاني وتضبط ملاحقة تجلياتها وإحصاء تواترها بكيفية مدققة، فإن نتائجه لا تناقض الخصائص العامة لنتائج التقنين المفصل، ويبقى التفاوت بين الأسلوبين باديا في مستوى الدقة التي يفضي إليها كل منهما.

وتمثل أسلوب التبسيط في الاقتصار على توضيح مفهوم كل بند والمعاني التي يشملها وتبيان كيفية إحصاء تواتر المعاني اعتمادا على الوحدات الآتية:

أ_ وحدة السياق: وتمثل في مجموعة الجمل التي تندرج بالوثيقة المفحوصة تحت عنوان فرعي أو رقم خاص أو مؤشر تمهيدي صريح يميز عن قصد محورها الخاص، أو يشير إلى العنصر الذي تناوله من بين عناصر المنهاج مثل الأهداف أو طريقة التعليم أو إرشادات تخص التصحيح، والجمل التي يضمها سياق مشترك تعد بمثابة وحدة معنوية كبرى تؤدي العلاقات القائمة بين مكوناتها إلى اكتمال المعنى العام المقصود، تمثل لذلك بما ورد في منهاج السنة الخامسة ابتدائي " ..فالتعبير يتيح للمتعلم أن يستثمر كل مكتسباته من النص .."² هذه وحدة تندرج ضمن سياق إحدى أسس التصور التربوي للتعبير ، و هي المقاربة النصية ، وفي إطارها نبحت عن وحدات تسجيل صغرى تشكل معاني بنود البطاقة، وننتبه أثناء البحث إلى أثر السياق والعلاقات بين الجمل في تخصيص المعنى أو المعاني التي تعبر عنها كل جملة للاحقاها بالبند الملائم لها.

ب _ وحدة التسجيل: وتمثل في المعاني المقابلة لبنود البطاقة، فكل بند عبارة عن وحدة تسجيل نرصد من خلالها المعاني الموافقة للبند لملاحظة مدى تكرارها بالوثيقة، فعبارة " ... يتوخى من نشاط التعبير الشفهي تحقيق الأهداف الآتية..."³ تمثل وحدة تحيل إلى بند الأهداف، وهذه المعالجة الكمية تتطلب اللجوء إلى وحدة التعداد أو التكرار المستعمل في إحصاء مدى تواتر معنى كل بند من بنود البطاقة بالوثيقة المحللة.

ج _ وحدة التعداد: وتتجلى في كيفية إحصاء الوحدات المعنوية الصغرى المستخلصة من الجمل أو من العلاقات القائمة بينها، وهذه الوحدات تدخل في حساب تواتر وحدات التسجيل، فمثال البند أعلاه الخاص بالأهداف ، ترافقه وحدات تعداد من مثل " التدريب على المناقشة الفاعلة الوظيفية"⁴ ، فإذا تكرر معنى البند بواسطة تأكيد،

أو شرحه، أو تخصيصه، أو التمثيل له، أو الإلحاح على أهميته، أو بمؤشرات مقالية أخرى تؤدي إلى استنتاجه فإن تعداد وتسجيل تواتره بعدد مرات تكراره...

د- بطاقة تحليل التقارير:

وهي أداة استرشدنا بها في تحليل التقارير التي حررها المفتشون* عن زياراتهم للمدرسين في حصص التعبير، منها ما هو وارد في سياق تقويم كفاءة المدرس وإعطائه نقطة تترك بصماتها على وضعيته المهنية والإدارية (التفتيش)، ومنها ما هو منجز في إطار تفقدي يستهدف متابعة عمل المدرس وتوجيهه (الزيارة).

وإذا كانت التقارير تمدنا بما يشخص مكونات الحوار القائم بين الممارسة والتوجيهات المسيجة لها، فإنها تمدنا أيضا بمصدر لتشخيص واقع تعليمية التعبير، وذلك بما تتضمنه من وصف وملاحظة لسير درس التعبير، وبما تقدمه من انطباعات وأحكام على الممارسة ومعقبة عليها. وقد تلتقي نتائجها العامة مع النتائج التي يمكن الحصول عليها باللجوء إلى ملاحظة الأقسام، حينما تستهدف الملاحظة مستوى التشخيص العام.

وقد انطلقنا من طبيعة التقارير المعتمدة أساسا على الوصف والتقويم والتوجيه، ومن تعليمية التعبير في مظهرها العملي... فصغنا بطاقة مختصرة تراعي هذين البعدين، فجاء التحليل مبني على أربع مقولات كبرى، ثم فرعناها إلى بنود ترصد وحدات التسجيل المدرجة في إطار كل مقولة، الأهداف، المواضيع ومعايير اختيارها، طريقة التدريس، التقويم.

وتم تصنيف كل بند في ضوء السمة التي يتمظهر بها في التقارير ليصبح تواتره مقسما بين: الوصف المجرد عن الأحكام، والملاحظات الإيجابية، والملاحظات السلبية، والتوجيهات.

- بعض المراجع:

- 1- سمير محمد حسين: تحليل المضمون، عالم الكتب، القاهرة، 1983.
- 2- عبيدات ذوقان؛ وعبد الحق كايد؛ وعبد الرحمن: البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه. عمان: دار الفكر 2011 ص 139.
- 3- سمير محمد حسين: تحليل المضمون، عالم الكتب، القاهرة، 1983 ص 19.

Muchielli,R,: L'analyse de contenu des documents et des 1_-4
communications , Paris, 1974, P. 35

L. Bardin: L'analyse de contenu (1ère édition.). PUF, Paris. 1977,P 43 . -5